

الحياة صارفة !

العدل الالهي !

مفردات مدبر الحكيم واليقين به

[موهبة إلى العقاد الكبير بمناسبة

مقاله « تبارك رزاق البرايا »]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

١ - لا شك أن « العقل » هو المميز والخصومية الأولى

للإنسان ، فواجبه أن يثق به ويقيم حياته جميعها عليه ، وهو محاسب عليه أشد الحساب . لأنه ميزان الحساب في كل شيء وهو الذي وطد الحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان الآن ، وإليه يرجع كثير مما في الحياة الإنسانية من آثار الرفاهة والسعادة والخدمة المشتركة بين الناس ، فلماذا لا يصمم الإنسان على ألا يحيد عنه حتى يرتاح دائماً ؟

ولماذا لا يعرف أن عقله روح من العقل الأعلى الذي يدير الكون بالتدبير والدقة والاطراد وعدم الإخلال بشيء ؟

إن الفرائض يجب أن تكون ملجئة بمحدوده حتى يتأقن تقدم الإنسان دائماً وعدم ارتداده وانتكاسه

وعقلنا هو نتيجة تلاقى المؤثرات المختلفة التي في الطبيعة على كيانتنا ، فيجب أن يكون تلاقى هذه المؤثرات موزوناً بنسب معينة تقريباً من جميع الجهات ، حتى يخرج العقل منسجماً موزوناً ... فإذا سار شيء من الطبيعة زيادة تأثير على ناحية من كيانتنا ، كان في هذا اختلال لمركز التجمع الفكري العام . ومهمة التربية والتنشئة أن توازن بين تسلط هذه المؤثرات الطبيعية جميعها على الإنسان ، فلا تجعل مؤثراً أو عدداً من المؤثرات يطنى أو يستأثر بالتسلط عليه ، بينما المؤثرات الأخرى تكون معطلة

فإنسان الصحراء وحدها قد خضع لمؤثراتها وحدها ، فله عقل معين ؛ وإنسان المزارع وحدها متأثر بها وحدها ، فله عقل آخر . وإنسان المدن الصناعية له عقل ثالث . وهم جـ ا

وإنسان الفن وحده له عقل معين ، وإنسان العلم وحده له عقل آخر ، وإنسان الأعمال التجارية له عقل ثالث وهم جـ ا . فلكي نتحاشى أن نكون الفروق بين العقول فروقاً فاحشة

بحيث لا يمكن تلاقيها ، يجب أن نجعل الفرد تنقلب عليه شتى المؤثرات وتتداول فكره ، حتى تكون آثارها فيه بنسب موزونة تعطيه سمة النظر إلى الحياة وتقدير آفاقها جميعاً

وإني لأعجب للدولة الواحدة التي تترك أفرادها ، وبينهم من التفاوت في النشأة العامة والاقتصادية والخلفية ما لا يمكن أن يتصور معه لقاء منهم على شيء !

فكيف يتصور هؤلاء الأفراد الأوزاع المشتتون الذين لا رابطة تجمعهم معاني العدالة الإلهية أو العدالة الإنسانية ؟

لا شك أنهم معذورون إذا لم يستطيعوا أن يتصوروا تلك المعاني السكينة الجامعة التي تحتاج إلى إعداد وتهذيب وتغرين خاص لإدراكها

٢ - وأول نظرة يدركها العقل الذي يتعرف رجعات الحياة والاعتراف بجميع الأمم والشعوب ، المتحرر من القائل بالمخلفات وموارث التاريخ ، توحى أن الإنسانية أسرة واحدة ، وأن الأرض وطن واحد لهذه الأسرة

وتأني نظرة توحى أن الله وضع الإنسان في الأرض موضعاً عظيماً هو موضع السيد المتصرف ، على الأقل في الظاهر . وثالث نظرة توحى أن الله أطلق للإنسان قدرة وأعطاء اختياراً لتكييف حياته كما يشاء . .

ورابع نظرة توحى أنه يكاد لا يكون في الطبيعة فساد ولا آلام تجعل وجه الحياة كريهاً مشوهاً ، لا يماثر إلا على غضاضة ومضاضة إلا بفعل الإنسان الذي نسبة الشرور التي يرسلها هو على الحياة وعلى بني جنسه أعظم بكثير من الشرور التي تأتي من الطبيعة مباشرة كالكبراكين والزلازل والظوفان والصواعق ... الخ ، وخصوصاً في هذا العصر الراهن ... ومن المشاهد المروء أن الإنسان لا يضيّق صدره بقضاء الله وقدره المباشر ، ولا بشور غضبه وحقد ، ويتحول إلى عامل دمار وخسار إلا في مقاومة الاعتداء والشر الإنساني الذي يأتيه من الناس ، لأنه يجد نفسه في قدرة على دفاعهم والانتقام منهم ، فيقدم على ذلك ليرضى حزازات نفسه . أما شرور الطبيعة ، فيتألم منها ، ولكن لا يشور عليها ، لأنه لا يملك أن يشور عليها ، فهو يجد أن أحسن وسيلة للقائها هو الصبر والاحتمال ومحاولة مقاومتها بإدراك أسباب الوقاية أو المعالجة

فإذا أردت أن « تحاكم » الله ، وتعرف واجبه الذي فرضه على نفسه ، فلا تنظر نظرة ضيقة متأثرة بالأنانية الشخصية

أنهم مسئولون عن إصلاح الناس جميعاً ، ورعاة لهم جميعاً . . .
فتعلموا كالحب لا يبحثون عن الأمكنة الخصبية للاستثمار ، بل
يبعثون عن عباد الله الإرشاد والإقناذ والتعليم ، فكان أحدهم
يخرج من جنات الشام والعراق ومصر إلى صحارى الشرق
والغرب يبحث عن النفوس الضالة والعقول الشاردة . . . فلما
ركنوا إلى المكث في الرياض وتركوا الهجرة لملتهم الأعلى
وفقدوا التشير به قل دخول الناس في دينهم إذ وجدوم مثلهم . .
تجار دنيا . .

٤ - إن العقل إذا أهمل ضلت الإنسانية وتحولت أسباب
حسنتها إلى سيئات . . والمسئول عن ذلك ليس الله ، بل الإنسان
في مجموعه ، ولم يخل عصر من العصور التاريخية من امبراطورية
عظيمة كانت تسيطر على أغلب مقدرات الأمم ، وتستطيع أن
تقيم العدالة بينها لو أرادت ، ولكن الأناية والجهل وعدم
الانتباه إلى مسئولية الخلافة في الأرض هي التي ملأت الأرض
بالظلم والفساد . .

والدليل على ذلك أن الانجليز مثلاً أو الجرمان أو الروس
البلاشفة أو الأمريكان حين أقاموا دولهم في بلادهم على الشعور
بالوصاية العامة وتوزيع العدالة بالتساوي ارتفعت نفوس الأفراد
وصحت لأجسام وسمت عقائد الحياة وتقدم العلم وكفيت حاجات
النفوس إلى حد ما . مع أن كل أمة من هؤلاء مكونة من عدد
كبير . . بينما أمة صغيرة من الهمج وأشباههم لا يزيد عددها
على بضعة آلاف ولا تزيد مساحة بلادها على بضعة أميال ، تمش
في قوضى واضطراب وفساد وجهالة . وذلك لعدم الاحساس
بالمنى الإنسانية في كل فرد ، وعدم الاحساس بالوصاية وعدم
تدبير الأمر بينهم .

وإن حياة السوء التي تحياها الأمم التأخرة هي التي تبليبل
عقائد المفكرين من الجهال . . وتجعلهم يحملون الله مسئولية
ما يقترون م . . . إنهم يعترفون بالأقدار ويحملونها متاعبهم
ومسئولياتهم حين يكونون متأخرين متقاعسين ، ولا ينظرون
إليها ويعترفون بها حينما يكونون قادرين .

وإنك لو فكرت وقدرت لوجدت أن جرائم القادرين
والأغنياء هي التي سببت ملء الأرض بجرائم الفقراء كالسرقة
والقتل وحمل أسباب الأمراض وآثار الفقر المدرس . .

هبة النعم طهوف

(السلام صلة)

أو القومية . . . لا تنظر إليه من مكانك أنت في أمتك ولا من
مكان أمتك في الأمم ، بل انظر إليه وأنت تمثل الإنسانية
الواحدة الهائلة . . .

ثم إذا أردت أن تنظر إلى الإنسانية في الأرض ، فانظر
إليها من السماء نظرة الله . . . إنك حينئذ تراها هكذا : أسرة
واحدة متنوعة أفراداً وجماعات وأممًا . . كل جماعة استأثرت
بمكان ومنعت غيرها عنه . وكان اقتسام الأمكنة غير عادل
فأخذت أمة السهول المربعة ونالت أخرى الأجاذب ، فزاغت
عيون المحرومين وجاعوا إلى الضروريات فلم يلب لهم رجاء ، ولم
يخف المترفون الأغنياء لنجدتهم ، فهاجوا وقاتلوا واستولوا
وأذلوا وصار بعضهم يحوج في بعض . .

وحقيقة الحقائق الاقتصادية التي يجب أن تقوم عليها فلسفة
الحياة المادية ، أن ما في الأرض من خيراتها ومناجمها وموارد
الأرزاق كاف لجميع سكانها . . ذلك أمر تولى الله تقديره وتدبيره
« وبارك فيها وقدر فيها أقواتها » .

كان الواجب العقلي المجرد من النزائز أن يسرع التخوم
باسماف المحروم ، وأن يقسم معه ما زاد عن كالياته ، وأن تقوم
حكومة عادلة تقوى ذلك . . فإن الأرض كلها ميراث للإنسانية
كلها كما يرى الله وكما قدر ودبر . . .

٣ - وعقيدتي أن كل ظلم واقع على المستضعفين قسميولته أمام
الله واقمة على كاهل الأمم القوية ، وكل أمة جاهلة مسئولية جهلها
واقمة على الأمم العالة . . وكل أمة فقيرة مسئولية فقرها واقمة
على الأمم الغنية . فالله تعالى ترك القاصرين منا للراشدين ، كما
يترك الأب أولاده الصغار لرعاية الكبار . . ذلك قياس العقل
الإنساني وذلك منطق في الأسرة الواحدة . فلم لا يكون قياسنا
في الأمة الواحدة ، ثم في الأمم المتعددة ؟

ولذلك كانت النفس العربية في أول نهضتها برسائلها تحس
ذلك الإحساس المتمثل في قول رسول الله : « كلكم راع
وكلكم مسئول » .

وقول أبي بكر : « لو أن عقلاً بعير ضاع بالمراق لحسبت
أنى مسئول عنه أمام الله » .

وقول عمر حين رأى شيخاً قبطياً يسأل الناس على باب
مسجد « لقد أضعتك صغيراً ولم تكفك كبيراً » وأجرى عليه
رزقاً يكفيه . .

وقد قام العرب أول الأمر بمقتضيات هذا . فكانوا يعقدون